التنوير والتعتيم

منذ بداية الإنسانية ، وتاريخ الفكرالبشرى ، يعجّ بلفظى : النور والظلام ، يستعملها مرات فى مدلولها المادى الذى يقصد إلى النهار والليل ، إلى ظهور الشمس والقمر واستخدام الإضاءة الصناعية أو إلى غياب هذه كلها ، ويستعملها مرات أخرى فى مفهومها المعنوى الذى يرمى إلى العلم والجهل ، أو يرمز إلى قوى الخير وقوى الشر .

فى كل ذلك ، وأيًا ما كان الاستعمال ، ذا إشارة مادية أم ذا إشارة معنوية ، فإن لفظ النور – دائمًا – يعبر عن الضوء والعلم والخير ، فى حين أن لفظ الظلام – دائما – يعبر عن العتمة والجهل والشر .

وفى القرآن وردت ألفاظ الظلام (والظلمات) والنور بمعانيها المادية ، كما ذكرت بمدلولاتها المعنوية : ﴿اللهُ وليُّ الَّذِينَ آمنوا يُخرِجُهُمْ من الظُّلماتِ إلى النور والَّذينَ كفَروا أولياؤهمُ الطَّاغوت يُخرِجونَهم من النورِ إلى الظُّلُمَاتِ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٥٧) ، و ﴿هوَ الَّذِى يُصَلِّى عليكمْ وملائكتهِ ليخرِجَكُمْ من الظُّلماتِ إلى النورِ﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٣) .

فالظلمات فى هاتين الآيتين وغيرهما ، تعنى الضلالة التى يصلّى

obeikandl.com

الله وملائكته على الناس ليخرجهم منها إلى الهداية ؛ فى حين أن الطاغوت (رؤوس الضلال) يخرجون من يتأثر بهم ويتبعهم من الهداية إلى الضلالة .

والخروج من الضلالة إلى الهداية يكون على ما يحدد القرآن بالعلم والبيّنة ، كما يكون الخروج من الهداية إلى الضلالة بالجهل والغموض . ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ مَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ٤٢) .

فالعلم والبيّنة سبيل إلى الهداية ، والجهل والغموض طريق إلى الضلالة . ومن هذا المعنى جاء فى الأثر الإسلامى أن « العلم نور » ، كما أوصى المسلمون بأن يطلبوا العلم ولو فى الصين ؛ أى أن يطلبوه مهما كان بعيدًا عنهم نائيًا منهم .والعلم الذى هو فى الصين ليس علما من علوم الشرع الإسلامى ، بطبيعة الحال ، لكنه . علم من علوم الحياة ، لأن العلم مشاع الإنسانية كلها وتراث البشرية جميعًا ، ليس له وطن محدد أو معتقد بذاته ، بل العلم بلا جنسية ولا دين .

ومع أن أمة الإسلام بدأت كما وصفها النبى ﷺ وأمّة أمية لا تكتب ولا تحسب ، فقد أدركت معنى العلم وجوهر البيّنة ؛ وسعت حثيثًا فى طريق المعرفة والبيان ، حتى أنشأت حضارة سامقة ، استوعبت عناصر كثيرة من الحضارات التى سبقتها : مصرية وهندية وفارسية وإغريقية ورومانية وصينية ، وقدمتها إلى الإنسانية فى ثوب جديد وفهم سديد .

كانت الحضارة الإسلامية تنطوى على العلوم والآداب والفنون (التى تساير روح الإسلام) ، كما كانت تقوم على العقل وتستوى على المنطق وتركن إلى السببية وتعمد إلى العلية Causality. ذلك أن العقل البشرى ، بطبيعته الخلقية وجبلته الكونية ، لا يصل إلى المعارف ولا يفهم العلوم ولا يدرك الحقائق ولا يستوعب المسائل إلا من خلال مفهوم السببية ومدلول العلية ، الذى يربط الأحداث بأسبابها ، ويفسر الظواهر بعللها ، ويمنطق الأحكام بترتيبها ، ويُرجع الأشياء إلى أصولها . فالعلم والعقل ، منطق وسببية وعلية فى الفهم والعمل والاستنتاج والاستطراد . وما لا يقوم على المنطق أو ينبنى على الأسباب أو يرتبط بالعلل ، يخرج من نطاق العقل ويبعد من حدود العلم ، فيُعد من قبيل الخرافة ، أو يعتبر عملا سحريًا ، وليست له قوانين محددة ثابتة استطرادية ، تؤدى إلى حدوث نتائج بذاتها متى وقعت أسباب بعينها .

هذا المنهج العقلى الواضح دعا إليه القرآن دوْمًا ، حين ربط الإيمان الصحيح بالبصيرة : ﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ سورة آل عمران ٣ ، ١٣ والتفكر : ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ سورة الرعد ١٣ : ٣ ، واخذ المسلمون بالمنهج العقلى والعلمى والفكر السببى — تنفيذًا لوصايا القرآن — فكان ذلك من أهم أسباب نجاحهم الحضارى وتفوقهم العلمى ، الذى مازالوا يفخرون به حتى الآن .

فى علّو هذه الحضارة ، وفى أوج شدّتها ، حدثت نكسة كبيرة ، قوضت المنهج العقلى والفهم العلمى والفكر السببى ،

فأدت إلى تقويض الحضارة الإسلامية وإلى تخلف المسلمين حتى اليوم . ذلك أن فرقًا كثيرة كانت قد نشأت فى التاريخ الإسلامى الأول ، أغلبها فرق كلامية ، تعمل على تحليل الفكر وتسويغ المعتقدات وتأسيس المفاهيم الدينية . ومن هذه الفرق كانت فرقة المعتزلة (التى سميت باسمها هذا عندما اعتزل مؤسسها واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى إثر خلاف قولى بينهما) . ظهرت المعتزلة فى أخريات القرن الأول الهجرى وبلغت شأوًا كبيرًا فى العصر العباسى الأول . وامتازت بحرية الفكر والاعتداد بالعقل وقوة الحجة ، ورفض رجالها الاشتراك فى الأعمال السياسية أو الاندراج فى الوظائف الإدارية ، كيما يتفرغوا للبحث والمناظرة .

وأدى بهم أسلوبهم إلى نقض مذهب الجبرية وإلى تقدير أن الله يثيب الإنسان ويعاقبه بحسب عمله الذى يخلقه الإنسان بقدرته وإرادته ، كما أكدوا فكرة أن واجب الإنسان الدينى يقابله حق له شرعى . كان من الممكن أن تتطور هذه الآراء والأفكار إلى أن تقدم مذهبًا إنسانيًا متكاملا تصدّره الحضارة الإسلامية إلى الفكر الإنسانى عامة ، لولا أن انزلق المعتزلة إلى فكرة خلق القرآن ثم انحدروا إلى العمل بالسياسة وفرض معتقداتهم بالقوة .

قال المعتزلة إن القرآن مخلوق ، ووقفوا كثيرًا عند هذه المسألة ، وأكدوا عليها تأكيدًا فلسفيًا جدليا ، يتناسب ومفهوم الناس للزمن فى ذلك الوقت (وهو المفهوم الذى انقلب رأسا على عقب إثر نظرية أينشتاين عن النسبية ، ووفقا للبحوث الفزيائية الحديثة) . يعنى ذلك أن قول المعتزلة عن القرآن ، كان كلاما فى كلام ،

وفروضًا فى فروض ؛ لا تستند إلى دراسات علمية ، ولا تعتمد على نظريات رياضية ، فى الفيزياء أو الكونيات Cosmology. بهذا يكون المعتزلة – الذين يعدون من أهم الفرق الإسلامية – قد بددوا طاقاتهم واستهلكوا قواهم فى مسائل فرعية وقضايا جدلية وأمور وقتية ؛ ولم يبحثوا فى الموضوعات الإنسانية العامة ، ولا وضعوا للعقل الإسلامى منهجًا متكاملا للعمل أو أداة دقيقة للفكر ، تحمل سماته وترفع صفاته .

وزاد الأمر سوءًا أن المعتزلة خالفوا تقاليدهم بعدم الانغماس فى السياسة وعدم الاندراج فى الوظائف ، ومن ثم وصلوا إلى السلطة فى عهد الخليفة المأمون (٨١٣ – ٨٣٣ م) فلجئوا إلى العنف والقوة والقهر لفرض معتقدهم عن خلق القرآن ، وجعلوا منه أساس العقيدة وركيزة الدين ، واضطهدوا مخالفيهم الذين كانوا يقولون إن القرآن أزلى وليس مخلوقًا ؛ ومن هؤلاء المعارضين أحمد بن حنبل . ومع أنه كان للمعتزلة حُججًا فى دعواهم ، وكان لمعارضيهم حججًا أخرى ، فإنهم فضلوا العنف عن المجادلة ، وآثروا القهر على المحاورة ، وبهذا أضروا العقل الإسلامى ومهّدوا لانهياره . فبدلا من أن توجد وجهتا نظر فى مسألة القرآن ، إحداهما تقول إنه أزلى وتقدم البراهين ، والأخرى ترى أنه مخلوق وتسوق الحجج ، فضّل الجميع أن يلجئوا إلى عنف السلطة وأن يركنوا إلى عسف القوة ، فلا يكون هناك إلا رأى واحد .

فى عهد المتوكل (٨٤٧ – ٨٦١ م) ، انتصر الخليفة للرأى القائل بأزلية القرآن ، فاستعلى رأى السلفيين الذين كانوا يقولون

بذلك ، ومن ثم عمدوا إلى الانتقام من المعتزلة ، فجرفوا فى طريقهم الانتقامى أسباب الحضارة ودواعى الاستنارة ، حين ضربوا العقل والمنطق وحرية الفكر ، باعتبارها السبيل الذى يؤدى إلى الكفر والإلحاد بمسألة مثل مسألة خلق القرآن .

فى هذا الجو المناوئ للعقل ، المعادى للفكر ، ظهر الأشعرى (أبو الحسن بن أبى موسى ٨٧٣ – ٩٤١) ليحدد عقيدته فى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ (وفقا لتفسيره هو ، وتبعًا لاختياراته الخاصة) ، وما رُوى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث . وبمذهب واتجاه أحمد بن حنبل ، المتشدد ، عدو المعتزلة الذى كان يقول بأزلية القرآن ، وأنه غير مخلوق . وأهم ما يتألف منه مذهب الأشعرى ما قاله من أن « الله قادر على كل شىء وخالق كل شىء ، وليس للطبيعة عنده فعل ما .. أما أفعال الإنسان ، فإن الله يفعلها ويخلقها فيه ، فينسبها الإنسان إلى نفسه ويزعم أنها من كسبه .. والعقل أداة للإدراك فقط ، لكنه يستطيع إدراك وجود الله » .

وقد انتهى الأشاعرة ، أتباعه ، إلى أن العقل لا يوجب (أى أنه عاجز عن أن يفهم) شيئا من المعارف ، ولا يقتضى (أى لا يستطيع) تحسينا ولا تقبيحا (أى تمييز الخير من الشر) ، ولا يوجب على الله رعاية لصالح العباد ؛ والواجبات كلها تفرض بالسمع ولا وصول لها (أى لا يمكن فهمها) بالعقل . وواضح تماما أن هذا الفهم كله على الضّد من آيات القرآن الواضحة الصريحة فى تبجيل العقل وجعله أساس الإيمان ومدار المساءلة .

ومن مدرسة الأشاعرة ، ظهر أبو حامد محمد الغزّالى (١٠٥٩ – ١١١١ م) الذى أكد أقوالهم ونظّرها ، فقوض الاتجاه العقلى تماما ، وحطّم المنهج العلمى نهائيا ، مما أثر على الإنسان المسلم وعلى الأمة الإسلامية تأثيرا بعيدا ، منذ ذلك الأوان وحتى الوقت الحالى ، وهو الأمر الذى يقتضى مراجعة عقلية كاملة وثورة فكرية شاملة ، لاستعادة روح الإسلام الحقيقية ، واستنارة الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامى .

وخلاصة مذهب الغزّالى – فيما يتعلق بالموضوع – أنه يرى أن اللّه سبب لوجود العالم ، وأنه خلقه بإرادته وقدرته ، وأنه لا توجد إلا علّية (سببية) واحدة ، هى علية (سببية) وجود المُريد ، أى اللّه ؛ أما علية (سببية) الطبيعة ، أو ما تلحظه المشاهدة من وجود صلة بين شيئين ، كإضرام النار واشتعالها فى الأشياء من ثم ، أو أحداث إصابة تعقبها وفاة ، أو رش ماء يتبعه بلل ؛ ذلك كله أمر منكور ، ومردود إلى علاقة زمانية (وقتية) بين الشيئين ، أى حدوث أمر متتابع بينهما ، فليست النار هى التى أشعلت الأشياء ، ولا الإصابة أحدثت الموت ، ولا الماء أنشأ البلل ؛ إنما ذلك كله تهيؤ فى ذهن الناس ، لحدوث هذه بعد تلك ، والفعل فى الحقيقة والسبب هو وحده اللّه سبحانه ، لا هذا الشيء أو ذاك .

مقتضى هذا الاتجاه أنه لا لزوم للعقل الإنسانى إطلاقا ، وأنه لا قيام أبدًا لفكرة السببية Causality ومبدأ العلية التى هى وهمٌ

يتصوره الإنسان بلا أى أساس ؛ وأن الأحداث ، والحوادث ، لا تقع نتيجة لفعل أو أثرًا لعمل ؛ وما يراه الإنسان من حدوث ظاهرة نتيجة لفعل أو نشوء حالة أثرًا لعمل هو رؤية غير صحيحة وتخيّل لا أساس له ؛ وأن العقل لا يستطيع التمييز بين الحسن والقبيح أو تحديد الخير من الشر ؛ وأنه لا لزوم للنظام الخلقى ولا ضرورة للمبدأ الأخلاقى ، لأن اللهَّ لا يثيب الإنسان ولا يجازيه وفقًا لعمله – مع الأخلاق أو ضد الأخلاق – مادام الإنسان لا يعمل شيئا ، وأن مايخيل إليه أنه عمل منه هو فى الحقيقة خلق الله وعمله ، ينسبه الإنسان إلى نفسه خطأ وادعاء .

ونظرًا لانتشار فكر الغزالى ، وكتابه إحياء علوم الدين ، فقد أصبح مذهبه ذاك هو حياة وكيان الفرد المسلم ، وفكر وأسلوب المجتمع الإسلامى . فليس ما يصدر عن الإنسان نتيجة إرادته ، لكنه قدر ونصيب كُتب عليه ، وفعله هو إنما يحدث منه دون وعى وبغير إدراك ، لأنه يفعل ماكتب عليه من قبل وما يُجبر على أدائه دون خيار .

ومن هذا المنطق العليل ، وبنفى العمل الواعى تماما ، انتهت فكرة وجود قوانين ثابتة مطّردة لحكم الأشياء ، كما انتهت كذلك فكرة حرية الإرادة وانقضى مبدأ مساءلة الإنسان عما يفعل .

بذلك ضُرب منطق السببية ومنهج العلّية ومبدأ حرية الإرادة وأساس القوانين ، وانتهى جانب الفكر وتقدير الحرية من العقل الإسلامى ، فلا هو قادر على الفقه والتشريع ، ولا هو قادر على

النظر والتدبير ، وليس مسموحًا له أن يبحث عن سبب الأشياء أو أن يغوص فى علل الحوادث أو أن يحاول تنظيم أفعاله أو السيطرة على إرادته أو التداخل فى التاريخ أو محاولة تسخير المواد لصالحه . ذلك أنه بغير المنطق لايستقيم فهم ، ودون السببية لا يتكون عقل ، وبنفى العلّية تنتهى العلوم ، وبإنكار حرية الإنسان يصبح أدنى إلى الحيوان وأقرب إلى المادة .

هكذا ، ذوت جذوة الحضارة الإسلامية ، وهوت شعلة التنوير والتقدم ، وخوت الساحة العالمية من أى اتجاهات حضارية ، حتى بدأ عهد النهضة فى أوروبا .

عصر النهضة Renaissance مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (القرون من ١٤ إلى ١٦ الميلادية) ؛ ويُؤرَّخ لها بسقوط القسطنطينية (الأستانة الآن) سنة ١٤٥٣ ، حيث أدى سقوطها فى يد العثمانيين إلى نزوح العلماء إلى إيطاليا ومعهم تراث اليونان والرومان ، وهو التراث الذى كان المسلمون قد عرفوه وترجموه إلى العربية ، فترجمة علماء الغرب عن العربية . ويدل مصطلح « عصر النهضة » غالبا على التيارات الثقافية والفكرية والفنية التى بدأت فى البلاد الإيطالية فى القرن ١٤م ، وبلغت أوج ازدهارها فى القرنين ١٥ ، ١٦م ؛ ومن إيطاليا انتشرت إلى فرنسا وإسبانيا والمانيا وهولندا وإنجلترا وإلى سائر أنحاء أوروبا . وتسمى هذه الحركة بالتنوير (تفعيل للنور) أو الاستنارة (بمعنى طلب النور ، الذى هو العلم والفكر

والفن) ترجمة للفظ الإنجليزى Enlightenment. وكان لهذه الحركة ، وذلك العصر ، تأثير بعيد المدى فى تكوين العقل الحديث على أسس جديدة تقوم على الدراسة النقدية أو الفحصية التى لا تسلّم بشىء دون علم ؛ وتستوى على السببية والعلّية التى تبحث عن أسباب القوانين وعلل الأشياء ، وتنهض على التجربة التى تعَد القاعدة السليمة للعلم . بهذا المنهج السديد فتحت للإنسانية أبواب كثيرة من المعرفة فى شتى نواحى الحياة ، وارتقت العلوم الطبية والهندسية والفيزيقية والكيميائية والفلكية والتاريخية والحسابية والقانونية وغيرها ؛ وانتهى التقدم العلمى بالوصول إلى التقنية (التكنولوجيا) التى تطوّع استخدام العلوم فى شتى جوانب الحياة ، مما قدم للفرد العادى فى كل أنحاء العالم نتاج الحضارة المتمثل فى وسائل الانتقال (الطائرات والقطارات والحافلات والسيارات .. إلى آخر ذلك) ووسائل الاتصال (التليفون ، والفاكس ، والتلغراف وغيرها) وأدوات ازدياد المعلوماتية (الحاسب الالكترونى وشبكة المعلومات وغيرها) ؛ هذا فضلا عن الآلات الطبية والهندسية المتقدمة وأدوات المنزل المتعددة ؛ وما سوى ذلك .

صاحب هذا كله ظهور وانتشار فكر يعمل على رعاية حقوق الإنسان ، وترسيخ أسس الديموقراطية ، وتحديد سلطات الحكام ، والعناية بمنظمات المجتمع المدنى ، وتأكيد مبدأ المواطنة ، والعمل على الفصل بين السلطات ، ومنع التمييز الدينى أو الطائفى أو الجنسى ، وتقرير حرية الفكر والتعبير .. وهكذا .

كان المسلمون بعيدين عن النهضة (حركة التنوير أو الاستنارة)

التى حدثت فى أوروبا ، منغلقين على أنفسهم ، مكتفين بتراثهم الذى انتهى إلى رفض العقل ونفى السببية وقطع العلّية وشجب العلم وسب الفن . وفوجئت مصر بالحملة الفرنسية ثم تلا ذلك محاولة محمد على تحديث الإدارة والنظام ، فأدى عمله إلى أن يطّلع نفر من أبناء مصر على جوانب متعددة من الحضارة الغربية (والتى صارت عالمية فيما بعد) فأدركوا ضرورة العمل على نقل جذوة هذه الحضارة إلى مصر ، حيث يمكن أن تتحول إلى شعلة فَمَنَارة للعالم العربى ثم للعالم الإسلامى . وداروا جميعا فى كتاباتهم وأعمالهم الفكرية والأدبية والفنية حول أفكار التنوير ، وعناصره ، دون أن يحددوا مصادر التراث أو يتتبعوا وقائع التقاليد التى تقف عقبة أمام التّنوير وتشكل حوائل فى سبيل حركته وانتشاره . ولعل بعضهم لم يدرك هذه الوقائع وتلك المصادر على حقيقتها ، كما أن بعضهم أدركها ولم يشأ أن يحددها بوضوح ، لما يمكن أن يحدثه ذلك من ردود فعل تخلط بين الدين والفكر الدينى ، بين ما جاء به الإسلام وما صدر عن البشر من آراء ، ثم تعمد إلى التهييج الديماجوجى وتعمل على الاتهام بالكفر والردة ؛ إما لعلة فى نفس يعقوب أو لحاجة فى جيب مرزوق .

فى العصر الحالى ، تجمعت أسباب عدة لظهور فكر تنويرى متكامل ، يقدم الإسلام المستنير ، ويقوم به مسلمون مستنيرون . ويهدف هذا الفكر أساسا ، إلى تحقيق روح القرآن وتنفيذ قصد الإسلام ، بإخراج المسلمين من ظلمات الجهل والغموض إلى نور العلم والبينة .

ويمكن إيجاز هذا الاتجاه التنويرى فى النقاط التالية :

أولا : استرجاع العقل الإسلامى الأصيل ، الذى نهض به المسلمون وكان سبب حضارتهم وقوتهم وأمجادهم ، وهو العقل الذى يقوم على الدراسة النقدية أو الفحصية التى لا تسلم بشىء دون علم ، ويستوى على السببية والعلّية التى تبحث عن أسباب القوانين وعلل الأشياء ودواعى الحوادث ، وينهض على التجربة التى تعد القاعدة السليمة للعلم والأساس الحقيقى للتخلص من صياغات لفظية وثقافات كلامية .

بهذا المنهج ينفتح المسلمون على حضارتهم السالفة لاستيعابها تماما ، ثم يتهجون إلى كل الحضارات السابقة والحالية لتشربها وإعادة تقديمها إلى الإنسانية وقد امتزجت بقيم الإسلام وفهم المسلمين ، مما يؤهلهم لأن يكونوا مساهمين فى الحضارة منتجين بها ، ليسوا مجرد مشاهدين ولاهمْ محض مستهلكين .

ثانيا : التأكيد على النظام الأخلاقى ، بحيث تُعّد الأخلاق أساس المعتقد وناتج الإيمان ، لا يجوز التحلل منها لأى سبب ، ولا ينبغى تجاوزها بأى تبرير ، ولا يصح تخطيها بأى شعيرة . والنظام الأخلاقى – فى هذا المفهوم المستنير – هو النظام الذى يصدر من قلب مؤمن ونفس مطمئنة ليمتد إلى كل إنسان على ظهر البسيطة ، بل وإلى المخلوقات جميعا ، فلا يستبعد منه أحدا مهما كان . ذلك لأن استثناء فرد واحد من النظام الأخلاقى يعنى عدم شمولية نظام لا يكون صحيحا إلا إذا كان شاملا ، فضلا عن

أنه يؤدى إلى استبعاد آخرين ، تباعا ، مما يؤدّى إلى تحطيم النظام نفسه . فالنظام الأخلاقى نظام كونى ، إما أن يمتد ليشمل الجميع ، وإما أن ينحسر حتى يقتصر على صاحبه فيحوله إلى شخص أنانى يبيع الكل مقابل أى نفع له ولو ضئيل ، أو ينتهى به إلى فرد عدوانى يحطم غيره ، كما يحطم المجتمعات والقيم ، إلى أن يخلص به الأمر إلى تحطيم نفسه تماما .

ثالثا : تحديد المسئولية الفردية ، وأن كل ما يقع من الإنسان يقع بإرادته إلا أن يكون وعيه فاسدا أو يكون عقله عليلا — والمسئولية الفردية لا تعارض بل تؤكد الإيمان بالله ، ذلك بأنها تفيد أن الإنسان يشاء ويعمل لتنفيذ مشيئته ، فإن وافقت مشيئة الله نفذت وكان الإنسان مسئولا عما يعمل إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعملْ مثقال ذرة شرا يره﴾ سورة الزلزلة ٩٩ : ٧ — ٨ .

ويترتب على المسئولية الفردية قيام مسئولية الطبيب إن أهمل ، والمهندس إن تجاوز ، والسائق إن أخطأ .. وهكذا . فليس ما يقع نتيجة خطأ شخص أو إهمال فرد أو تجاوز إنسان هو قضاء وقدر ، أو نصيب مكتوب لم يكن منه مفر ، بل إنه إساءة ممن أخطأ أو أهمل أو تجاوز ، وهو شر ينبغى أن يعاقب عليه وأن يعوّض عنه . والقول بغير ذلك يهدد النظام الأخلاقى تماما ، كما يقضى على أى مسئولية عن أى عمل ؛ فلماذا يتجه الإنسان إلى الخير مع ما فيه من مشقة ولماذا يتجنب الشر مع ما به من إغراء ، إن لم يكن مجازا عن الشر مثابا عن الخيْر ؟ ولماذا يؤدى أى فرد عملا

أو يجوّد فيما يعمل أو يتلافى الخطأ ويتجنب القصور ، إن كانت النتائج واحدة ، وكان عدم العمل أو الإهمال فيه أيسر وأسهل ؟

كذلك فإن كل حاكم وأى رئيس مسئول عما يفعل ، أمام القانون ، وإزاء الناس ؛ ليس لعمله حصانة ولا عصمة ولا قداسة . وما قد يقال خلاف هذا ، بتأويل أو بتعليل ، إن هو إلا تسويغ لإعفاء المسئول من نتائج أعماله أو آثار إهماله ، يضفى على العمل البشرى عصمة وقداسة ليست له . وقد كان هذا التسويغ المخطئ سند الحكام الظالمين والرؤساء الفاسدين . وفى ذلك كان المأمون يقول : « إن الإرجاء مذهب الملوك » ، ويُقصد بالإرجاء وأى المرجئة فى أن الحاكم لا يساءل عن عمله قط ، وإنما ترجأ محاسبته إلى يوم القيامة ، حيث يساءل أمام الله ولا يساءل أمام الناس .

رابعا : الديموقراطية : ويُعنى بها إيجاد مسلك عام للمجتمع بأسره ، يقبل تعدد الآراء ، ويتحمل نقد الرأى ما دام ذلك يحدث فى نطاق العلم وفى مجال الأخلاق . فلا يكون لجماعة أو فئة الحق فى التعبير عما تريد ، بالعنف والقوة والتهديد والإيذاء ، ولا يكون لغيرهم حق نقد هذا المسلك أو تقديم فكر أصوب ورأى أرشد . كذلك فإن الديموقراطية تعنى تداول السلطة أبدًا ، لا مجرد أن يتم التأكيد عليها كشعار حتى تصل جماعة بذاتها إلى الحكم فتنتهى الديموقراطية وتزول الحرية ، وهو ما يُعبّر عنه بأن الديموقراطية لا تعنى صوت واحد لفرد واحد مرة واحدة .

الديموقراطية تعنى حكم الأغلبية السياسية ، لا أغلبية عنصرية

أو أغلبية معتقدية . وبهذا المعنى يمكن أن تتغير الأغلبية من جماعة إلى جماعة ، ومن حزب إلى حزب ، أما قصرها على الأغلبية العنصرية أو المعتقدية فيعنى جمودها وعدم تداول السلطة أبدا ، لأن العنصر والمعتقد لا يتغيران بسهولة ، وقد لا يتغيران أبدا .

كذلك فإن الديموقراطية تعنى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، من خلال القانون ؛ وأن يكون له الحق فى محاسبة الحكام ، وعزلهم — وفقا للقانون — دون إراقة دماء ، وبغير اتهام بالكفر والردة أو الخيانة والمروق . ومقتضى حكم الشعب لنفسه أن يكون له حق وضع الدستور (القانون الأساسى) وتشريع القوانين ، عن طريق مندوبين له أو نواب عنهم ، ينتخبهم بحرية دون تدليس وبغير تزوير .

خامسا : حقوق الإنسان : حرصت الشرائع عموما على تأكيد الإنسانية وتكريم الإنسان . وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ سورة الإسراء ١٧ : ٧٠، بما يفيد أن الله كرم الآدميين عموما ، وقدّر بنى الإنسان كلهم . ومن محاسن التقدم الحضارى والفكرى أن صارت حقوق الإنسان أساسا للفهم الإنسانى والعمل البشرى فى كل أوان وكل مكان . ولا يعنى ذلك أن التطبيق سوف يكون سليما على الدوام ، وإنما يفيد أن المبدأ نفسه دخل طورا جديدا ، وأنه قد تحدث تجاوزات كثيرة ، لكنها مع الوقت سوف تزول ويرقى المبدأ .

حقوق الإنسان تعنى فى الأساس أن يُعَدّ الإنسان إنسانًا بحكم

طبيعته ، فهذا مبدأ كونى وقاعدة دينية صارت حكما خلقيا عاما ، لا ينبغى التحلل منها أو التحايل عليها بادعاء أن هذا الحق منحة من القانون أو حماية من جماعة أو هبة من حكومة . والتطبيق الأمثل لحقوق الإنسان يعنى عدم التفرقة بين الناس بسبب المعتقد أو الفكر أو اللغة أو اللون أو الجنس ، فلا فرز دينى ولا تمييز طبقى ، ولا اضطهاد جنسى (للمرأة) .

تلك هى العناصر الأساسية فى الاتجاه التنويرى الذى لابد منه لنهضة المسلمين من كبوتهم وتجديد الفكر الإسلامى مما ران عليه خطأ وتلبّس به ظلما . وما عدا ذلك فهو اتجاه ظلامى يرسخ ما يشكو منه المسلمون بل ويزيدهم سوءا على سوء . فإن زعم زاعم أنه مستنير فعلى المجتمع أن يأخذه بتلك العناصر وأن يقيمّه وفقا لها حتى يتبيّن التنوير من التعتيم .